

1- من هم العثمانيون :

العثمانيون هم قبائل تركية تنحدر من أواسط اسيا سكنت اسيا الصغرى ينتسبون الى عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه اقاموا دولتهم على انقاض الامارات السلجوقية ثم اتجهوا بفتوحاتهم نحو أوروبا وتحديدًا منطقة البلقان وحوض الدانوب وقد استطاع محمد الثاني المعروف محمد الفاتح فتح مدينة القسطنطينية عاصمه الإمبراطورية البيزنطية عام 1453 م ثم وجه العثمانيون نشاطهم الى الشرق وهم الذين الق اليهم الخلافة الإسلامية بعد العباسيين فدافعوا عن الإسلام وعملوا على حماية اهله من الاعتداءات الخارجية وفتحوا اوطان جديدة واختلطوا بشعوب مختلفة وسجل التاريخ في عهدهم احداثا كثيرة واستمرت دولتهم قائمه لستة قرون وربع القرن 625 سنة 1299-1924 وتعاقب على حكمها أربعون حاكما .

2- دوافع التواجد العثماني في شمال افريقيا :

تعرض شمال افريقيا الى الغزو الايبيري منذ أواخر القرن الخامس عشر واصبح موطنًا للاضطرابات ومرتعا للأسبان والبرتغاليين بعد سقوط دولة الموحدين حيث انقسم المغرب الى دويلات إقليمية متنازعة ومتحاربة فيما بينها رغبة في التوسع والنفوذ الامر الذي شجع القوى الصليبية على استهداف المنطقة وتقسيمها الى مناطق نفوذ بين الاسبان والبرتغاليين حيث انفردت البرتغال بالمغرب الأقصى بينما حازت اسبانيا على المغرب الأوسط والادنى وتدخل فهذا اخطار برنامج توسعي وسياسة تهدف للقضاء تدريجيا وبصورة جذرية على كل مظاهر الإسلام .

لقد اندفع الاسبان بقيادة الملك فرديناند والملكة ايزابيلا بمباركة رجال الدين وعلى رأسهم الكاردينال خمينيس الذي اشتهر بتعصبه الديني وهو من دعاة مواصلة الحرب ضد المسلمين بشمال افريقيا مكان الاستحواذ على سواحل المغرب الأوسط - الجزائر - مرتبطا بسقوط الاندلس لأنه العمل الوحيد الذي يضمن حسب اعتقادهم تحقيق النصر وقطع الطريق على رجعة المسلمين الى الاندلس فسارعوا الى احتلال المرسى الكبير 1505 ب بجاية وطرابلس 1510 ومدينة الجزائر 1511 ولما عجز سكان الجزائر عن التصدي للغزو وتحرير مدنهم استتجدوا بالأخوين خير الدين وعروج ومن هنا بدأت العلاقة بين الجزائر و الدولة العثمانية الحاملة لواء الجهاد الإسلامي والدفاع عن المسلمين في هذا الوقت ذاع صيت الإخوة عروج

وخير الدين حيث كانوا يتميزون بشجاعة ومعرفة كبيرتين بالبحر فوضعوا انفسهم في خدمة السلطان العثماني فقاموا بحملات عديدة على شواطئ اسبانيا لمساعدة مسلمي الاندلس على الهروب من شبه جزيرة ايبيريا فكانوا يملكون حوالي عشرة سفن وحوالي 1000 بحار جاعلين مم الجهاد حرفة لهم .

لم يكن الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا - الجزائر - لولا غزو الاسبان لها بسبب الضغن الذي عرفتة المنطقة في ظل حكم بني زيان وبني حفص واحتلال البلاد من طرف الاسبان وفرض الضرائب على سكان المدن واجبارهم على تمويل حربهم الاستعمارية دفع السكان الى طلب النجدة من الاخوين خير الدين وعروج لتخليصهم من الاحتلال ممكن عن الرجلين الا أن طلبا العون والمساعدة عن السلطان العثماني الذي زودهم بالمحاربين والذخيرة لصد الغزاة وبفضل تلك المساعدة شعر الجزائريون بالأمان والاطمئنان في ظل الدولة العثمانية القوية ان ظهور الاتراك بالمنطقة كان له دور فعال في تحرير مناطق الوجود الاسباني وانطوائها تحت الحكم العثماني بعيدة عن كل ما يجعلها عرضة لمخاطر الغزو المسيحي ولعمل الرابط الوحي -الديني- بين الاتراك العثمانيين واهل المنطقة هو الذي شجع على بقاء شمال افريقيا الجزائر - تونس - طرابلس تابعا للدولة العثمانية باعتبارها الدولة الحامية للإسلام والمسلمين كيف لا وهي التي عملت على توحيد صفوف المسلمين في العديد من الدول وهو ما جعل الدول الغربية تتخوف من وحدة المسلمين وتكاتفهم من جهة وتحقد على الدولة العثمانية من جهة أخرى لأنها وقفت منيع في طريق التوسع الأوروبي في العالم الإسلامي طوال أربعة قرون من الزمن.

لم يكن الدخول العثماني لبلاد المغرب غزوا او تدخل مباشرا من الدولة العثمانية كما هو الحال بالنسبة لمناطق المشرق العربي بل امرا فرضته التهديدات المسيحية الاسبانية أوائل القرن السادس عشر الميلادي حيث جذب هذا الصراع الصليبي الجديد رجال الجهاد البحري الذين اسسوا اساطيل بحرية ثم اندمجوا مع الاندلسيين وسكان المغرب في مقاومة الغزو المسيحي وكان الاستقرار الاتراك في الجزائر ثم في طرابلس وتونس دور حاسم في حسم النزاع مع اسبانيا وفي الهيمنة على الحوض الغربي للمتوسط وفي مداخلتنا هذه نحاول التعرف على انعكاسات دخول الاتراك لشمال افريقيا على المطامح الاسبانية الجامعة في احتلال السواحل المغاربية والهيمنة على البحر المتوسط .

3- دخول العثمانيين الى الجزائر :

تزامن الغزو الاسبيري لبلاد المغرب في بداية القرن السادس عشر مع ظهور طلائع رجال الجهاد العثمانيين بقيادة الاخوة بربروس عروج وخير الدين و اسحاق والتي اتخذت الموانئ التونسية منطلقا لها لنجدة مسلمي الاندلس وملاحقة سفن المسيحيين المعتدية في عرض المتوسط وقد ذاع صيت المجاهدين العثمانيين وانتشرت اخبار بطولاتهم فتوجهت اليهم انظار المجاهدين الجزائريين وفي مقدمتهم أبو العباس احمد بن القاضي حاكم الزاوة والذي خاطب القائد عروج مستعطفا إياه لإنقاذ بلاده من الاسبان قائلا " ان بلادنا بقيت لك ولأخيك أو للذئب " ويكون بذلك اول قدوم للعثمانيين الى الجزائر بطلب من الجزائريين قصد الدفاع عن اوطانهم المهددة بالغزو وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال الاسباني وأول منطقه توجه اليها الإخوة بربروس هي بجاية عام 1512 حيث باشر عروج شن هجوم على الحامية الاسبانية بالمدينة دون أن يتمكن منها ، وفي سنة 1514 انتقل الى جيجل التي كانت تحت سيطرة الجنويون فحررها واتخذها قاعدة له لسن هجماته على بجاية ولما سمع اعيان مدينة الجزائر ببطولة المجاهدين الاتراك استجدوا بهم لتخليصهم من الحامية الاسبانية التي كانت تضايقهم فاستجاب عروج لطلبهم عام 1516 وشن هجوم على حصن البينون دون ان يتمكن منه وقد رأى عروج امام خطورة التهديد الاسباني لبلاد المغرب ان يوطد سلطة قوية بمدينة الجزائر توحد كامل المنطقة وتكون قادرة على مواجهة العدو فعمل على التخلص من سالم التومي واستمالة أعيان المدينة ثم بادر الى تحصين ميناء المدينة وفرض سلطته على المناطق المجاورة وقد ساعد انتصاره على الاسبان المهاجمين لمدينة الجزائر وحزمه وشجاعته على كسب تعاون سكان مدينة الجزائر والمناطق المجاورة لها وعمل عروج على مد نفوذه الى السواحل الغربية لمقاطعة الجزائر ومواجهة الحكام المواليين للإسبان ومنهم سلطان تنس حميده العيد وملك تلمسان الزياني فتغلب على قوات سلطان تنس فتغلب على قوات سلطان تنس في المعركة التي وقعت قرب نهر الشلف في صيف 1517 ثم زحف نحو تلمسان بطلب من اعيانها لتخليصهم من ابي حمو الثالث فتمكن من هزيمته ودخول المدينة في سبتمبر 1517 وقد فر أبو حمو الى اسبانيا للاستنجاد بملكها شارل الأول وجاء الرد الاسباني سريعا حيث قطعوا الطريق على عروج بقضائهم على حامية قلعة بني راشد التي كان على راسها شقيقه إسحاق وحاصروا عروج في منطقة بني سنان وقضوا عليه في ماي 1518 واعادوا أبو حمو الى تلمسان مقابل ان يدفعوا لهم ضريبة باهضة .

خلف خير الدين أخاه عروج في حكم مدينة الجزائر واستطاع ان يحافظ على نفوذ الاتراك رغم الاخطار الخارجية والداخلية وذلك بفضل حنكته واستعانتته بالسلطان العثماني حيث اقترح على اعيان مدينة الجزائر ان يكتبوا للسلطان سليم العثماني ليعينه حاكما على الجزائر ويمده بالعون لحماية مدينتهم من خطر الاسبان وكان السلطان العثماني يطمح الى مد نفوذ الدولة العثمانية الى بلاد المغرب والهيمنة على البحر المتوسط فرحب بتعيين خير الدين حاكما على الجزائر وارسل له الفي جندي انكشاري وعدد من القطع البحرية وتقوى بذلك خير الدين لمواجهة اعدائه على الجبهتين الخارجية والداخلية ومنهم سلكان تلمسان الذي الب قبائل الغرب الجزائري وشجعهم عللا شن حملة تجاه مدينة الجزائر فقد استطاع خير الدين اخضاع المناطق الغربية المتمردة واعانة الأمير الزياني المسعود على انتزاع الملك من أخيه عبد الله الموالي للإسبان وبعد استتباب الوضع بالجهة الغربية التفت خير الدين الى الشرق حيث كان الأمير الحفصي يحضر للهجوم على منطقة الزاوة بمساعدة أحمد بن القاضي فانتقل خير الدين الى جيجل وشرع في توطيد سلطته على مناطق الزاوة وقسنطينة وعنابة وعاد الى مدينة الجزائر للقضاء على مناوئيه وطرده الاسبان من حصن البينون وعندما استدعي خير الدين الى إسطنبول عام 1533 كان قد وطد دعائم دولة الجزائر القوية والمرتبطة بالدولة العثمانية وواصل خلفائه البيلربايات مهمة حماية إنجازاته وتنفيذ سياسته الهادفة الى تحصين البلاد والصمود في وجه الحملات المسيحية والتخلص من أعوان الاسبان .

4- الدخول العثماني الى تونس :

في عام 1533 عين السلطان العثماني سليمان القانوني خير الدين قائدا للبحرية العثمانية فاهتم خير الدين بمسالة ضم تونس للدولة العثمانية تمهيدا لبسط السيادة على كامل المغرب الكبير ووضع استراتيجية محكمة في مواجهة الاسبان وكانت تونس تحظى بأهمية بالغة في عرض المتوسط فهي تتحكم في طرق مواصلاته وتحمي ظهر الجزائر كما ان اطلاق خير الدين على مؤامرات الأمير الحفصي شجعتة على المبادرة بالحاق تونس بالدولة العثمانية .

استغل خير الدين الظروف المضطربة التي كان يمر بها العرش الحفصي حيث اغتصب السلطان الحسن بن محمد السلطة من أخيه الرشيد الذي لجأ الى خير الدين وازداد استياء السلطان الحسن بن محمد السلطة من أخيه الرشيد الذي لجأ الى خير الدين وازداد استياء السكان من استبداد السلطان الجديد فطلبوا مساعدة خير الدين على ارجاع الأمور لنصابها فجهز خير الدين حملة ودخل تونس بسهولة في عام

1535 بعد ان خرج منها السلطان الحسن فارا الى البادية وعلى الرغم من معارضة بعض اعيان تونس للاحاق بلادهم بالسلطة العثمانية ومطالبتهم بإعادة الرشيد الى السلطة الا ان خير الدين صمم على انهاء سلطة الحفصيين وتوطيد سلطته بالبلاد وقد اغتاز الاسبان من استحواذ الاتراك على تونس وصمموا على طردهم منها خاصة بعد ان اتصل السلطان الحسن بشاركان طالبا عونه على خير الدين لاسترجاع ملكه فجهز الاسبان حملة كبيرة سنة 1535 خاضت معارك طاحنة وتمكنت من اخراج القوات العثمانية من تونس وارجاع الحسن الحفصي الى العرش وقد اشترط عليه الاسبان ان يقدم لهم مبالغ مالية باهظة ويسلم لها ميناء حلق الواد هذا في حين انسحب خير الدين بقواته الى الجزائر وشن منها هجوما على الشواطئ الاسبانية ونغص فرجة شاركان بانتصاره في تونس .

وبعد استدعاء خير الدين بربروس الى إسطنبول وتعيينه قائد للبحرية ركز نشاطه في شرق المتوسط في حين اهتم خلفائه على الجزائر بمهمته مواجهة القوى المسيحية في غرب المتوسط وقد ردت حملة شاركان على الجزائر عام 1514 وخطط العثمانيون في الجزائر لدخول تونس والمغرب وانشاء حملة مغربية تكون قادرة على صد الحملات الاسبانية وقد اتجه الصراع المسيحي - الاسلامي نحو تونس الى ان حررت نهائيا عام 1574 حيث مثلت بموقعها الاستراتيجي في المتوسط محل نزاع مرير وقد كان للإسبان نفوذ قوي بتونس منذ ان احتل اندري دوريا موانئ تونس وبنزرت والمنستير فوضع درغوث باشا خليفة خير الدين - نصب عينيه تحرير تونس من قوات اندري دوريا وشرع من طرابلس في شن حملات استولت على قفصه عام 1556 وامتدت الى القيروان ولكن الاسبان وبمعونة الأمير الحفصي ضلوا يسيطرون على شمال البلاد ونظرا لأهمية جزيرة مالطا في السيطرة على تونس وكامل المتوسط فقد عمل درغوث على انتزاعها من فرسان القديس يوحنا وان كان درغوث لم يحقق حلم السيطرة على تونس فان حكام الجزائر واصلوا خطواته وتمكنوا من ضم تونس الى نفوذهم حيث تمكن العلي على بعد اخفاق مخططه في استعادة الحكم الإسلامي في الاندلس من مد نفوذه الى تونس وانتصر على السلطان احمد بن الحسن الحفصي في ديسمبر 1569 وارسل في طلب الاسطول العثماني للقضاء على الحصن الاسباني بحلق الواد ونظرا للتهديد العثماني المحدث تداعت اسبانيا والقوى المسيحية الى عقد حلف مقدس يوحدتها في مواجهة العثمانيين ووجهت حملة كبيرة بقيادة دون جوان للقضاء على الاسطول العثماني فقد كانت واقعة ليبانتي الشهيرة في 7-10 - 1571 قرب مالطا معركة حاسمة بين القوى المسيحية للدولة العثمانية انهزم فيها

الاسطول العثماني لكن العلي علي تمكن من انقاذ جزء منه وإعادة بنائه بعد ان اوكل له السلطان سليم الثاني مسؤولية قيادته سليم الثاني الى جانب توليه حكم الجزائر وفي عام 1573 دخل دون جوان علي راس الحملة الصليبية الى تونس وطرد الحامية الجزائرية وردا على ذلك قرر السلطان العثماني تسيير حملة الى تونس بقيادة العلي علي وسان باشا تمكن من القضاء على الوجود الاسباني في جميع البلاد التونسية والقضاء على الدولة الحفصية وإخضاع تونس للسيادة العثمانية وهكذا حققت الدولة العثمانية انتصارا باهرا على القوى المسيحية وطمأنت الجزائر على خطوط مواصلاتها مع الدولة العثمانية .

5- الدخول العثماني لليبيا :

كانت طرابلس بموقعها الاستراتيجي مدينة صغيرة يسكنها العرب وقد لفتت انتباه العثمانيين في صراعهم مع القوى المسيحية فقرروا اخضاعها لنفوذهم وطرد فرسان مالطا منها فجهزوا حملة قوية بقيادة مراد اغا نزلت بطرابلس عام 1551 وحاصرت المدينة فأضطر فرسان مالطا للتخلي عن المدينة وبذلك حصل العثمانيون على قاعدة عسكرية وبحرية مهمة تربط مصر ببلاد المغرب وتحمي ظهر تونس من العدوان المسيحي وقد عين مراد اغا حاكما عليها باسم السلطان العثماني ولعبت ليبيا دورا مهما في الجهاد البحري والتجارة الدولية زمن العثمانيين وخلاصة القول فان الدخول العثماني لبلاد المغرب ارتبط بظروف خاصة املت على رجال الجهاد العثماني تحمل مسؤولية شاقة في نصره مطرودي الاندلس وسكان المغرب من القوى المسيحية والتخطيط لبناء كيانات سياسية بديلة ومتحالفة مع الدولة العثمانية لتتمكن من مجابهة القوى المسيحية العاتية وقد كانت الجزائر قاعدة للجهاد الإسلامي في المتوسط ومنها انطلق العثمانيون لتحرير تونس وحاولوا ظم المغرب لنفوذهم لكن الدولة السعدية الناشئة كانت عصية على ذلك .